

كامل عويد العامري: في رصد خرائط الاستشراق

خليفة صويح

هل هناك ما يمكن إضافته حول كتاب «الاستشراق» (1978) لإدوارد سعيد؟ مجموعة باحثين، أعادوا تقليب التربة مجدداً، بقصد فحص حقل الاستشراق بعدسة مكبرة تتجاوز وتفترق عن أطروحة الأكاديمي الفلسطيني الراحل (1935-2003). هذه الأطروحة التي لم تتوقف إلى اليوم، عن إثارة أسئلة جذرية تتعلق بالخطاب الاستعماري وتركتها الاستشراقية الثقيلة. كتاب «الاستشراق: إدوارد سعيد صورة قلمية منحازة» (دار نينوى- دمشق) الذي قام بتحريره وترجمته كامل عويد العامري، إسهام نوعي في رصد خرائط الاستشراق وطبقات تضاريسها المتعددة.

انهماك إدوارد سعيد بتفكيك هذا الخطاب الإشكالي، بوصفه ظاهرة ثقافية في المقام الأول، رابطاً المعرفة بالسلطة، بصرف النظر عن التناقض الراسخ بين الغرب والشرق كهويتين مختلفتين، ولم يكن معنياً بإعادة الاعتبار إلى الشرق أو تقويم صورته بقدر سعيه إلى القول بأن الشرق لا وجود له، لو لم يكن من صنع وخيال الغربيين. لكن تفسير الاستشراق ذهب بعيداً، يعكس مقاصد صاحبه. يذكر ترفيتمان تودوروف الوشائج التي جمعتها بصاحب «خارج المكان»، فكلاهما أتيا من بلدين هامشيين (فلسطين/ بلغاريا)، وعملاً معاً في «جامعة كولومبيا» الأميركية. ورغم اعترافه بالجهد المعرفي الاستثنائي الذي بذله إدوارد سعيد في «الاستشراق»، إلا أنه لا ينكر بأنه كان تعميمياً، قبل أن يفتح دروباً جديدة في «الثقافة والإمبريالية»، و«غطاء

الإسلام»، بالإضافة إلى عناية بدراسة «القضايا الضائعة»، وتصحيح الصور السلبية والعموميات التعسفية تجاه الشرق والإسلام.

بالنسبة إلى هادون تورو، فإن إدوارد سعيد هو الأب المؤسس للدراسات ما بعد الكولونيالية، انطلاقاً من فكرة الاستشراق نفسها، فالشرق كان اختراعاً أوروبياً منذ العصور القديمة، بوصفه مكاناً غريباً وخيالياً، لترسيخ أركان الثقافة الأوروبية وإيضاح هويتها بمحو صورة الشرق كجزء متمم للحضارة الأوروبية. وتالياً بإمكاننا أن نعدّ الاستشراق انعكاساً لسلطة الغرب على الشرق، أكثر من كونه حديثاً عن الطبيعة الحقيقية لهذا المكان. هكذا نهضت أبحاث إدوارد سعيد في قراءة العلاقة بين السلطة والمعرفة على أفكار ميشال فوكو وأنطونيو غرامشي لفحص مفهوم «الهيمنة الثقافية»، وكشف الغطاء عنها بحفريات عميقة، ستجد صداها لاحقاً لدى مفكرين آخرين، أبرزهم هومي بابا الذي كثر تساؤلات سلفه عن كيفية بناء صورة الآخر، وخلخله صورة المستشرق والأيديولوجيا الاستشراقية، وصولاً إلى ما يسميه الخلاسية أو الهجنة الثقافية كطريقة للتفاوض تؤدي إلى زعزعة أوامر الفكر الكولونيالي.

لكن ما هو حال النقد العربي للاستشراق في فرنسا وأميركا؟ يجيب توماس بريسون بأن المفكر المصري أنور عبد الملك المقيم في باريس، سبق إدوارد سعيد في دراسة الاستشراق بنحو عقدين من الزمن. وتالياً فإن سعيد مدين للوسوسولوجي المصري بربطه ما بين تطور الاستشراق الأوروبي في القرن التاسع عشر والاستعمار (معرفة - سلطة). فكرة أساسية اعتمدها سعيد في أطروحته، فيما يذهب عبد الملك

هويته الفلسطينية وحساسيته إزاء الحديث عن المكان والهوية والتاريخ. يشير علي حسن الفوزان في «الاستشراق أسئلة في المختلف»، إلى أن الوفرة في السجال حول معنى الاستشراق أتت بتأثير كتاب إدوارد سعيد وأطروحاته الخاصة بوعي الذات والهوية وإشكالات الآخر الاستعماري، وصولاً إلى التشكيك في براءة ظاهرة الاستشراق، وضرورة استعمال أدوات جديدة في قراءة التاريخ الاستشراقي بعيداً عن الأوهام

إلى تأكيد «بطلان استشراق جعله إلغاء الاستعمار باطلاً»، وهذا ما أسهم في تطور دراسات مجتمعات شرقية من صنع الشرقيين أنفسهم. ويخلص توماس بريسون إلى أن هذين المفكرين كرسا نفسيهما لـ «تفكيك راديكالي للاستشراق» من موقعين مختلفين.

هكذا وضع إدوارد سعيد الاستشراق في مقام مختلف، رغم وجود دراسات سابقة عليه، نظراً إلى اختلاف مرجعيته وارتباطها بخصوصية

والصراعات القديمة. من جهته، يتكئ خواكين بيلتران انتولين في «الاستشراق والاستشراق الذاتي» على آراء إدوارد سعيد الاستشراقية في فضح الاستشراق الذاتي المتواطئ مع الغرائبية كضرب من التماهي مع ثقافة الآخر والتهليل لها كفضاء للخيال والوهم والتسليع لتبرير متطلبات المجتمع الاستهلاكي المعولم.

بتأثير القراءة العربية للاستشراق، برزت دراسات من طراز آخر، تدعو إلى تفكيك مفهوم «الاستغراب» لتحديد طبيعة العلاقة مع الآخر، والتمايز والخصوصية بين الأنا والآخر. يوضح محمد سالم سعيد أن هذه الثنائية، أفرزت مفاهيم أخرى مثل التراث والحداثة كنوع من مواجهة انكسارات اللحظة العربية الراهنة. هكذا اعتنى حسن حنفي بمعالجة مصطلح الاستغراب «تحويل الآخر إلى ذات مدروسة، وتحويل الأنا إلى ذات دارسة»، فيما نشأ تيار آخر يرى في الاستغراب «السلوك المعرفي والبحثي المتأثر بالغرب كلياً، والمنبهر بإنجازاته، لا يجد مخرجاً لأزماته إلا من خلال الحلول التي يقترحها الآخر». هكذا انخرط حسن حنفي في تحليل معنى الاستغراب والتصدي له عبر جبهات متعددة، لكسر طوق الاحتكار الذي ألفه (الآخر) سبيلاً للهيمنة وبسط النفوذ، راسماً مجموعة من المهمات المعرفية مثل التحزب السياسي والثقافي، والقضاء على المركزية الأوروبية، وثنائية المركز والأطراف، وأسطورة الثقافة العالمية التي يتوحد بها الغرب، وتالياً استيقاظ فلسفة جديدة للتاريخ تبدأ من الشرق. لكن هذه الأفكار ستواجه بنقد مضاد، إذ اتهمه محمود أمين العالم بمحاولة بناء مركزية حضارية إسلامية في مواجهة المركزية الأوروبية من منطلق أصولي معكوس.



إدوارد سعيد هو الأب المؤسس للدراسات ما بعد الكولونيالية

رواية

هلال شومان: ماضي الأيام الآتية

سومر شحادة

في روايته «كان غداً» (دار الساقى)، يعمد الكاتب اللبناني هلال شومان إلى بنية سردية مفككة تتداخل فيها أشكال صحافية عدة، لتصوير لبنان فضاءً سردياً يشهد أحداثاً غامضة ترمي بالأمس إلى الغد، إلى درجة يخال القارئ الحاضر لحظة هاربة من

الماضي وما تلبث أن تعود إليه.

تعتبر رواية شومان رواية عن الزمن الراهن، حيث تتقدم الحرب من وراء الحدود، وتشهد الساحة السياسية والإعلامية سجالات حبال النأي اللبناني بالنفس. تتحدث عن النازحين وقضايا الإرهاب والعنف. يسرد شومان داخل روايته، رواية تعود إلى فترة الحرب الأهلية اللبنانية، لتكوّن

تقاطعاتها مع رواية الزمن الراهن... رؤية الكاتب لواقع لبنان ولشباب ثقافته السائدة، فالبلد محكوم بقانون الحرب، لا باعتبارها حدثاً سياسياً أو ثيمة أدبية في النص، وإنما وفق هواجس نبئت جراء الحروب المتتالية وعلى هوامشها. هواجس لم تنته بانتهاة القتال، بل بدأت بانتهاة، ليظهر المجتمع قلقاً ومرتبكاً، يفقد للاستقرار ويعيد خلق أزماته، حيث الإبناء ورنّة لهوية آبائهم. يأخذ الخوف من المستقبل شكل نكوص إلى ماضٍ يابى أن يغادر. اعتمد الكاتب أسلوباً خاصاً في كتابة الرواية عبر «تمزيق البنية القصصية وجعلها أشلاء» بسلسلة من الإقصامات أو «المشوشات» تبدو خارج سياق النص لكنها تنقل مزاجاً عاماً. الأسلوب جاء متوافقاً مع طبيعة المجتمع الذي يكتب عنه. إذ يورد أجزاء من مقالات صحافية أو مقابلات تلفزيونية وتحقيقات حية عن مواضيع شتى. يورد تلك الشذرات في متن السرد، على نحو بدأ عبثياً. لكن البطء الذي كانت تسير به حكايات الشخص في الرواية، بات مشوباً بتحفيظ الوضع العام. لقد نجح الكاتب. وفق الأسلوب الذي اعتمده - في جعل قارئه رهيناً لنص لا يتقدم. نص مُلغز، ينقل قلقاً عارماً، وفي الوقت ذاته، يروي حياةً شائكة على نحو شديد الطمأنينة. تروي «كان غداً» حكاية خالد وطليقته سهى، إذ تأخذ قصتهما حيز السرد الأكبر. يشكل دخول ريم وهي صديقة سهى إلى حياة خالد سبباً لإيضاح حياة الأخير، وفهم عاطفته، وطريقته في الحب. في الوقت ذاته، تراه ريم

نوعاً من السلوى من أجل الخلاص التدريجي من مديرتها الفرنسي ألبير. تبدأ الرواية بينما يجزّب خالد الاعتياد على الحياة بعد انفصاله عن سهى، يعيش أيامه مثل «لاجي». يتعرف إلى ريم في كافيته، وتنتهي المواعيد بينهما، لكنهما لا يصلان إلى شكل أخير لعلاقتهم على امتداد الرواية. لقد بدا شومان مهتماً، باقتطاع جزء عفوي من حياة أبطاله، وبدت الرواية لديه عننة عن الحياة لا نقلاً مُدعياً ومحبكاً أو تاماً لها. تتتالي زيارات ريم، إلى استديو خالد، ويزورها في منزل طليقتة، بعدما اتّمنتها على المنزل خلال سفرها. يمضي خالد أيامه في بيروت في زيارات إلى أماكن عمل لينا، وتلتقي سهى مع روجيه زوج لينا في لندن. يمثل هؤلاء الزوجان شكلين متقابلين للعلاقة الزوجية، وهي ناجحة لدى لينا وروجييه وإن كانت تقسم بنهايات باردة، وفاشلة لدى خالد وسهى وإن تقسم بنهايات صاخبة وغير اعتيادية. بينما تجد سهى سببها للإنجاب خارج علاقتها مع خالد، يبقى هو محاصراً بأسئلته عن موت الأجنة في رحم سهى. تفوته الحقيقة التي لم تقلها طليقتة، بأنّ رحمها يقتل أطفاله فقط. بالتوازي مع رواية العلاقات المعقدة، يسرد ضرغام الصليبي، جار خالد في الاستديو، رواية حياته، التي كان غياب جانيت الخوري عنها شراً رافقه من شبابه إلى نهايته جوزاً على كرسي متحرك، وهي الصورة التي تظهر والدته فيها، في تداعٍ للمصائر لا يتوقف عن التكرار.

تتلخص الحالات التي يذكرها الكاتب؛ في قصص موت مفاجئ، حوادث سير وخطف علني، انتشار للجريمة والعنف الجنسي، معاناة من القمامة والأمراض الغامضة، الاقتراب من مجتمع النازحين ومقاربة مشاكلهم في ضوء الحلول اللبنانية. التفجيرات، وموت القطط، الواقع الخدمي السيء... بدا لبنان، يقترن من الانفجار من دون أن يصله، وتمثل الإعلانات الطرقية للمبيدات الحشرية التي تظهر فيها الصراصير بأحجام عملاقة، قبل أن تنتشر صور ثلاث فنانات يشاركن في حملات وطنية، تلخيصاً هازئاً من الواقع، وسخرية سوداء ترافق مشاهدات الوزراء والمؤتمرات الصحافية للمسؤولين؛ ما يعقد منها وما يتم الغاؤه. يبدو البلد كما لو أنّ لا أحد يفهم ما يحدث. تبدو حملة الفنانات الثلاث «ما تعلق لبلدك» دعوة تشي بأنّ الجميع على وشك الفرار من البلد لا معقول. الضجيج هو الخطاب الأمثل فيه، والفوضى هي نقطة النظام الأقوى.

إن رواية الحرب الأهلية، في إحدى أشكالها، تأتي جواباً عن هوية البحث الخمس في البئر، التي تُكتشف في الصفحة الأولى. وبالمثل، فإنّ «كان غداً» تأتي جواباً، لسؤال ما! إذ إنّ هذا العرض الحساس والتفصيلي لأخبار مجتمع اليوم، ستصنع أحداثه في المستقبل. نستطيع الاقتباس من رواية شومان، الذي يطمح الوصول إلى نص يخلو من الاقتباس، مقولة الرواية الأثيرة في أنّ «الأمس هو اليوم والخوف أن يبقى الأمس هو المستقبل».



بدا كان لبنان يقترب من الانفجار هن دون أن يبلغه